

الدورُ الإعلاميُّ لنساءِ الطفِّ [السيدة زينب (ع)]

أ.د. دلال عباس - الجامعة اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مذ كنت طفلةً حفظتُ ما كانت تُردده والدتي كلَّ عاشوراء ممّا أوصى به الإمامُ الحسينُ عليه السلام السيدة زينب سلام الله عليها : " يا أُخِيَّةُ إِنِّي أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ ، فَأَبْرِي قَسَمِي ، لَا تَشُقِّي عَلَيَّ جَيْبًا ، وَلَا تَحْمِشِي عَلَيَّ وَجْهًا ، وَلَا تَدْعِي بِالْوَيْلِ وَالنُّبُورِ إِنْ أَنَا قُتِلْتُ " . كما حفظتُ عباراتٍ من خطبة العقيلة في مسجد يزيد .. لكنّ ما كنت أسمعُه في مجالس العزاء مما يقوله القرّاء والقارئات كان مختلفًا ومناقضًا لما رسخ في ذهني ، وزينبُ التي تصوّرُها مجالسُهُم، تختلف عن صورة زينب المثل التي انرسمت في ذهني طفلة ، وعزّزتها قراءاتي شابّة ، لقد كان ذلك التّيار الذي يصوّرُها امرأةً بكاءة لاحول لها ولا طول كما يُصوّرُ أبطال كربلاء يستجدون قطرة الماء، أشدّ تأثيرًا وفاعليّةً وجماهيريّةً. كنت أتساءل ، متى ستُعاد الأمور إلى نصابها ؟ ومتى سيفهم الدورُ الذي أدّته نساء الطف بعيدًا من الصورة النمطيّة التي رسّختها في الأذهان الحكايات الشعبيّة طيلة قرونٍ متمادية .

الجواب جاء على لسان قادة الثورة الإسلاميّة في إيران ، وقد كنتُ شاهدةً على أحداثها من قرب، ورأيت بأُمّ عيني النساء الزينبيّات، يتقدّمن صفوف المتظاهرين، ويُستشهدن من أجل إحياء الدين المتمثل بانتصار الثورة، ومن ثمّ يحرّضن أبناءهن على المشاركة في الجهاد المقدّس... لقد أعادت الثورة الإسلاميّة منذ اثنين وأربعين عامًا صورة زينب الحقيقيّة لتملأ قلوبنا وجوارحنا لم تبدأ القصة: قصة الانقلاب النهائي على الدين وأركانه في كربلاء، لقد بدأت منذ تلك اللحظة التي أعلن فيها معاوية الحرب على عليّ (ع)، ثم نقضه بعد ذلك العهد الذي أعهده الحسن عليه السلام، وإعلانه في العام الذي سُمّي زورًا عام الجماعة (41هـ - 663م)، حين جمع الناس في مسجد المدينة المنورة وخطب فيهم، معلنًا بصراحة ومن دون أدنى مواربة، أنّه لا يأبه بهم وأنّه لن يسير على خطى الخلفاء السابقين ولم يذكر عليًّا لأنّه لم يعترف بخلافته. كان من الطبيعيّ والبدهيّ أن يرفض الإمام الحسين (ع) البيعة ليزيد، ولو فعل، لما كان هنالك إسلامٌ ولا مسلمون، ولولا استشهاد الحسين، لما قامت كل تلك الثورات التي قوّضت العروش، أو على الأقلّ أقضت مضاجع الحكام الجائرين ، وبشعار "هيهات منا الذّلة" سقط عرش ملك الملوك ، وأذلّ العدو الإسرائيليّ ، وهُزم الدواعش...

نعم ما كان دينُ محمّدٍ ليستقيم إلاّ بقتل الحسين عليه السلام، وما كان استشهادُ الحسين سيعطي ثمارًا لو لم تسبى النساء، ولم تقف زينب عليها السلام متحديةً عبيد الله بن زياد، ويزيد الملك نفسه... وقد نجح الإعلام المضلل في

الكوفة وفي الشام، في تصويرهم خوارج وكفاراً خرجوا على سلطة الخليفة، والناس دائماً كما صورهم الإمام عليّ عليه السلام، عالم ربّاني ومتعلم على سبيل نجاة [وهؤلاء قلة]، وهمج رُعاع يسكرون وراء كل ناعق والناعق في ذلك الحين كان عملاء الحكم الأمويّ وفقهاؤه، والناعق اليوم وسائل الإعلام بقضّها وقضيضها، أو هم كما قال الإمام الحسين عليه السلام: "الناس عبيدُ الدنيا والدين لُعق على ألسنتهم يُحيطونه ما درّت معایشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلّ الديّانون".

صباح يوم الاثنين الثالث عشر من المحرمّ كان دخول السبايا مع العسكر إلى الكوفة؛ لما رأت السيّدة زينب بكاء النسوة ونشيج الرجال العجائز، عزّ عليها ما رآته منهم، فأشارت عليهم بيدها، فسكتت الأصوات وهذا النشيج، وبدأت تخاطبهم بقوارص الكلام الزينبيّ المنطلق من فمها بفصاحة محمّديّة، حتى قال من سمعها (خزيم بن بشر الأسديّ): نظرتُ إلى زينب بنت عليّ عليهما السلام فلم أرَ خفرةً أنطقَ منها.

هذه الخطبة الأولى للعقيلة زينب عليها السلام فعلت فعلها في خلعة البنية الفكرية للجماهير الكوفية، التي كان الإعلام الأمويّ قد دفعها إلى مؤازرة أو مهادنة الحكم الأمويّ القائم على الغلبة، والمستغل الدين ليتحكّم برقاب الناس، مذكرة إياهم بوصية رسول الله، بأنّ الدين مصدره الثقلان: كتاب الله وعترته رسول الله، أهل بيته (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، ج ٢، ص ٣٦٢). ليكتشفوا بأنفسهم أنّهم قد خدعوا وغرّروا بهم وأضاعوا دينهم ودنياهم وأخرتهم، حين خذلوا ابن رسول الله، ونصروا بني أمية، ممّا دفعهم من بعد إلى أن يراجعوا حساباتهم، ويغيّروا من سلوكهم، ويبحثوا عن السبل التي تمكّنهم من تصحيح الرؤية والسلوك.

يقول خزيم راوي خطبة العقيلة، والشاهد على حال أهل الكوفة بعد سماعهم لخطبتها عليها السلام: فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته، وهو يقول بأبي وأمي كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونسأؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل، لا يُخزى ولا يُبزى لقد ذكرت زينب عليها السلام أهل الكوفة بما غفلوا أو تغافلوا عنه، ومن هي، ذكرتهم أنّها ابنة الذين طهرهم الله من الرجس تطهيراً، ومن هو ابن زياد (حفيد سميّة صاحبة الراية وابن مرجانة)، وعضدت مشروع الإمام الحسين الإصلاحيّ لأمة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم؛ يدلّ على ذلك التغيير العامّ الذي طرأ على سلوك أهل الكوفة بعد ذلك ومؤازرتهم للمطالبين بالثأر لشهداء كربلاء، ووقوفهم في وجه الحكام الأمويين المتعاقبين.

خطبة زينب (ع) بالشام

في الشام قصدت السيدة زينب عليها السلام أن تبدأ خطبتها بآيات من القرآن الكريم، فالكلام ليس موجّهاً إلى يزيد وحده، وإنما إليه وإلى أهل الشام

المضللين، الذين لا يعرفون هي مَنْ وابنة مَنْ ، والذين قيل لهم إنَّها ومن معها ، أسرى العصبية الخارجة على الخليفة الشرعي " ، لذلك هي تذكره وتعلم أهل الشام ، أنَّها ومن معها من السبايا هنَّ بنات رسول الله ، وأنَّه هو ابنُ الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة كرها لا طوعاً ، وأنَّه حفيد آكلة الأكباد ، وأنَّه مهما فعل لن يمحو ذكرَ أهلها، وشتان بين شيوخه المشركين الذين هُزموا يوم بدر ، وهو يأخذ بثأرهم اليوم وبين جدِّها النبي وآله ،

لقد شعر يزيد بالخزي أمام جلسائه من خطبة العقيلة، وما هي إلا لحظات حتى دخلت زوجة يزيد هند بنت عبد الله وهي تقول: ويحك يا يزيد، فعلت فعلةً استوجبت بها النار يوم القيامة، والله، ما انا لك بزوجة ولا أنت لي ببعل، فقال لها: ما أنت وآل فاطمة؟! فقالت: بأبيها وبعليها وبنيتها هدانا الله وألبسنا هذا القميص (تعني الخلافة)، ويلك يا يزيد، بأيِّ وجه تلقى الله ورسوله؟! فقال يا هند دعي هذا الكلام...وتلا ذلك بعد موت يزيد أن رفض ابنه معاوية الثاني أن يخلف أباه في ملك ابنه علي قتل ابن رسول الله، ويدعي القتل أنهم خلفاؤه.

الحمد لله أننا خلقنا في هذا الزمن الذي فهمت فيه ثورة الحسين وبطولة زينب عليهما السلام حقَّ الفهم، وعلى هديهما قامت الثورة الإسلامية في إيران، وانتصرت المقاومة في لبنان، لم يعد الحسينيون هم البكاؤون على الحسين في أيام معدودة، وحين تنقضي عاشوراء، يعودون إلى الدنيا ومباذلتها، صار الحسينيون الحقيقيون هم الذي كسروا قيود الذل والهوان والتبعية، وأسقطوا بقيادة الإمام الخميني العظيم عرش الطاووس، وعلى خطاهم سار المقاومون الذين دحروا الاحتلال الإسرائيلي ، وتصدوا للدواعش الذين أفسدوا في البلاد ودافعوا عن المسلمين وغير المسلمين لأنَّ الناس في مدرسة أهل البيت هم إماما إخوة في الدين وأنظائر في الخلق. والزينبيات هنَّ أولئك النساء اللواتي ناضلن وسُجنَّ في سجون الشاه، واللواتي سرنَّ في مقدمة المظاهرات السلمية، وفتحنَّ استشهادهنَّ الطريقَ لسقوط الطاغوت وعودة الإمام، وأعاد إلى المرأة المسلمة في إيران كلَّ الحقوق التي كان قد منحها إياها الإسلام، ولم تُطبق إلا في حكومة المدينة؛ والزينبيات اليوم عالمات ذرة وفيزياء ومشاركات في الحكم، وفي كلِّ شؤون الحياة. الزينبيات هنَّ اللواتي دفعن أولادهن للدفاع عن الثورة الإسلامية، وعن الجمهورية الإسلامية، وهنَّ اللواتي دفعن أولادهن لمقاومة العدو الإسرائيلي، ومقاومة الأميركيين والدواعش في سوريا والعراق ولبنان، و مقاومة الطغاة أينما كانوا، واستقبلن جنائمينهم بدمعة جليلة وبالترجيع ، اقتداءً بزینب علیها السلام...

